بين الإحيائية والعبثية

محمد علي شمس الدين

- ١ -

من الظواهر التي تدعو للتأمل حقاً، في السلطوية السياسية العربية السائدة (بمعزل عما تمنحه لنفسها من تسميات) أنها تعتبر نفسها محصّنة ضد النقد، سواء كان هذا النقد ذاتياً، أم جاءها من طرف آخر.

إنها سلطة الرأي الواحد المنزّل الفرح بذاته، القاطع المانع، القطعي الأخير (إذ ليس في حسبانه سواه) المنزّه المقدّس المنتصر حتى في قاع الهزيمة، المكلّل بالغار حتى لو كان جبين الناس ينزف تحت إكليل الشوك، وفي أفواههم يرسب حبّ الحنظل. إن السلطوية العربية السياسية، تعتبر نفسها فوق الأسئلة، وفوق النحو والصرف والشعر والقانون، وما أشبه.. ذلك أنها، لشدّة ما حدقّت في مرآة ذاتها، ترسّبت صورتها في قاع هذه المرآة، وتأبّدت، وتخشبت، وانتفخت، وتنرجست في طقوس دائرية لعبادة الذات، هي في الواقع شكل من أشكال طبائع الاستبداد (والتعبير للكواكبي).

وإننا حين نذكر السلطوية السياسية العربية، فإنما نعني بذلك مختلف أشكال السلطات السياسية بكافة رموزها وتنظيماتها، سواء كانت في موقع الحكم والقرار، أو كانت في موقع التأثير على هذا القرار. وليس أدلّ على ذلك، مما حصل في الهزيمة التي لحقت بالأمة العربية، من جراء العدوان الاسرائيلي الأخير على لبنان. فقد مضى، حتى الآن، ما يقارب الأشهر الستة على هذه المذبحة المذهلة (إلى درجة انسداد أدوات التعبير عنها..) ورغم ذلك، لم نقرأ أو نسمع أي تنظيم سياسي أو أية سلطة سياسية أعلنت عملية استبطان أو تحديق في الضمير... وقالت نعم.. أنا أتحمّل المسؤولية في الهزيمة.. أو جزءاً منها.. «ولهذا استقيل». ذلك أن فروسية السقوط كفروسية الانتصار، تحتاج الى كثير من الشجاعة.

- ٢ -

إذا كانت السلطوية السياسية العربية السائدة، مهزومة مرتين: مرة لأنها تتجرع في الواقع كأس الهزيمة، ومرة ثانية لأنها لا تعي هذه الهزيمة، فأين تقف الثقافة العربية الراهنة من هذا المشهد المأساوي؟.

ليس بوسع الثقافة الأصيلة أن تكون شاهد زور أو محرّض طغيان أو مختار هزيمة. لذلك فهي اليوم، في جزء منها، هجائية، وفي جزء آخر منها، عبثية. وذلك بعد أن كانت، قبل السبعينات، «إحيائية» أو «نهضوية».

وبالأمكان أن نتبيّن هذه المراحل الثلاث للثقافة العربية في النصف الثاني من القرن الحالي، من خلال الشعر، على اعتبار أن الشعر

هو التعبير الصافي عن روح الشعوب. فالمرحلة الإحيائية بدأت مع نهاية الخمسينات وبداية الستينات، وتمثلت في مجموعة من الشعراء وظهرت في أكثر من بلد عربي، فظهر بدر شاكر السياب في العراق، وخليل حاوي في لبنان، كما ظهر الشعراء التموزيون في لبنان وسوريا...

إن المظهر الإحيائي لدى بدر شاكر السياب تجلى في استعماله المكثف لعناصر الطبيعة، في الخصب والنماء. ويمكن اعتبار «المطر» مفتاح لغته:

«أحسّ بالدماءوالدموع كالمطر
ينضحهنَّ العالم الحزينْ
أجراس موتي في عروقي ترعش الرنينْ
فيدلهمّ في دمي حنينْ..».

كما تجلى المظهر الاحيائي في شعر خليل حاوي، في انبعاث حضاري غناه الشاعر غناء وجدانياً ملحّاً، استمد بعض عناصره من التراث العربي، الديني منه خاصة، كأسطورة «الخضر».. فضلاً عن التراث الشرقي الديني الإسلامي والمسيحي على السواء:

«بدويٌّ ضرب القيصر بالفرسِ
وطفل ناصريٌّ وحفاة
دوّخوا الوحش بروما....
ربِّ ماذا
ربِّ ماذا
هل تعود المعجزات...؟»

أو كقوله في قصيدة «الجسر»:

يعبرون الجسر في الصبح خفافاً
أضلعي امتدّت لهم جسراً وطيد
من كهوف الشرق من مستنقع الشرق
إلى الشرق الجديد
أضلعي امتدّت لهم جسراً وطيدْ...».

أما لدى الشعراء التموزيين، كيوسف الخال وأدونيس (في مرحلته الأولى) وقدموس (كمال خيربك) فقد تجلّى المظهر الإحيائي لديهم باستعارات أسطورية، لكائنات تنبعث فيها الحياة دورياً من الموت. فطائر الفينيق ينبعث من رماده، كما أن الإله تموز (أدونيس) يتجدد دمه في كل عام مع تجدد دم الطبيعة في الربيع.

ليس من الضروري ربط هذه الظواهر في التجديد الشعري العربي بظواهر أخرى موازية لها على الصعيد السياسي (ثورة يوليو ٥٢ في مصر وتموز سنة ٥٨ في العراق واستقلال لبنان وسوريا قبل ذلك، وانتصار الثورة الجزائرية... الخ) لأن هذا الافتراض قد يقودنا الى مفارقات أو مقاربات مغلوطة، سيما وأن هذه الفترة المفترضة فترة إحياء ونهوض قومي، شهدت في مطلعها (نهاية الأربعينات) أكبر فاجعة سياسية عربية هي ضياع فلسطين، والتكريس المتمادي اللاحق لهذا الضياع. ولكنّ الواقع أن الروح الشعبية العميقة والحية، والمجذرة في التراب والتاريخ، هي التي كانت تلهب هذه اليقظات الشعرية.

منذ بداية السبعينات، بدأت هذه الروح الاحيائية بالخفوت، والانطفاء، بشكل ملحوظ. وحل محلها ما يمكن أن نسميه «عصر المتاهة» أو شعر المتاهة.

وقد تجلى التعبير عن عصر المتاهة، بنمطين من القول الشعري، قد يظهران لأول وهلة، على طرفي نقيض، إلا أنهما يشتركان معاً في بؤرة واحدة احتجاجية. النمط الأول هو الشعر السياسي الذي نما وازدهر على يد الشعراء الفلسطينيين، وعدد آخر من الشعراء العرب الذين بالإمكان اختصارهم نموذجياً بمحمود درويش وأدونيس (رغم اختلاف الملامح وتنوّع الأسلوب). والنمط الثاني هو الشعر العبثي الذي استمدّ من السريالية بعض عناصره، ولم تعوزه

في الواقع الحياتي الممزّق، أسانيد لقوله.

بالامكان اختصار النمط الأول السياسي للقول الشعري، بهذين النموذجين لأدونيس ومحمود درويش.

يقول أدونيس في مطلع إحدى قصائده «أكف أول الحروف انقرض... انقرض... والراء مثل الهلال.. ذائباً غائباً في الرمال».. أي نعي السقوط العربي المتمثل بسقوط حضارة مرموزاليها بالأبجدية العربية الساقطة. والتفسير يرد في قصيدة ملوك الطوائف: «باسم يافا.. باسم شعبٍ شرّدته البشريّة.

سمّني قنبلةً أو بندقيه».

أما قول محمود درويش في قصيدة «بيروت» وهي من آخر ما كتب، فهو:

«ومن المحيط الى الخليج

من الخليج الى الجحيم

ومن اليمين الى اليسار الى الوسط

أبصرت مشنقةً فقط..»

أما النمط الآخر من شعر «المتاهة» وهو المتكيء على السريال والعبث والنهلستية.. فيمكن اختصار ممثليه بهذا القول النظري لعبد القادر الجنابي الموضوع على غلاف مجلة «الرغبة الإباحية» السريالية التي يشرف على إصدارها الجنابي في باريس:

«جئنا من باطن الهزيمة. من أحشاء الرأس. فالأديان. المنطق. النظام الحقيقة. بأسوأ معانيها. والعقل. كلها رميناها في قعر جهنم. حذار من منطقكم أيها السادة حذار. فهيهات أن تعرفوا الى أين يمكن أن يقودنا حقدنا! على كل وعد عروبي... الخ».

بالإمكان، طبعاً، أن نلمح ملامح سابقة شعرية لمثل هذا القول، لدى بعض الشعراء اللبنانيين، خصوصاً شعراء مجلة شعر (أنسي الحاج في «لن»، وشوقي أبي شقرا وعصام محفوظ...) والعراقيين (سركون بولص)... كما بالإمكان رصد ملامح تالية في أجيال تالية... إلا أن مجموعة الشعر العربي الحديث الذي خرج عن إطار «الإحياء» وسواء كان هذا الشعر سياسياً أو عبثياً... إنما هو شعر «هجاء» للواقع العربي. وهذا الهجاء جاء تارة مباشرة (بالقلم الصريح والحرف الفصيح) وتارة مداورة أو مراوغة (فنية) كما في شعراء مجلة شعر مثلاً...

إن مأزق الشعراء الانبعاثيين مثله بشكل معبّر، خليل حاوي (بصمته) ومن ثم بانتحاره.. أكثر مما مثله بشعره اللاحق (نهر الرماد)، (الناي والريح). أما مأزق الشعراء السياسيين فشواهده يومية حيث يبقى مدار التعبير وطاقته لديهم حول الحدث أو فيه، أو قبله، أو بعده.. فلا ينشأ «مجرى آخر» – «مجرى خاص» موج وباحتمالات عديدة.

هذا المأزق الأكيد، بدا بشكل أقلّ إلحاحاً لدى الشعراء الآخرين المتكئين على السريال والعبث... أو اللغة.. والإشارات.. والصمت والاختزال والفراغات... الخ.. ورغم أن بعضهم نقد (الفصاحة السائدة) داعياً لنمط مغاير في التعبير، إلا أنه أتى بفصاحة أخرى لا تقل عن الأولى فصاحة... إن مأزق الشعر المخرّب هو أنه خرّب لغته (وكان ذلك منه حسناً) قبل وقوع الخراب على الأرض. أما الآن، وها هو الخراب على الأرض قد وقع فعلاً، وفاق الوصف، فما العمل؟

هل معنى ذلك ان كثيراً مما كتبه الشعراء العرب من شعر في النصف الثاني من القرن الحالي الى البحر أو الى الريح أو إلى النار؟.

أعتقد... نعم.. بمعنى من المعاني. وذلك مريع حقاً.

نعم.. وأستغفر الله.

بيروت